بسم الله الرحمن الرحيم

٢١

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا
فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ
إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾

(يوسف: ٤٧)

obeikan.com

هذه الآية الكريمة جاءت فى أواخر النصف الأول من سورة يوسف وهى سورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة بعد البسملة، وقد تفردت باستعراض قصة هذا النبى الصالح بتفاصيلها، والذى جاء ذكره عليه السلام فى كلّ من سورتى الأنعام وغافر. بينما جاءت سير غيره من أنبياء الله ورسله إما مجملة فى جزء من سورة، أو مفصلة على مراحل فى عدد من السور، علما بأن سبعًا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء غيره من أنبياء الله ورسله من أمثال: نوح، هود، إبراهيم، يونس، طه، يس، محمد (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، أو أسماء جماعة أو فرد من الصالحين من أمثال: آل عمران، مريم، ولقمان (رضى الله تعالى عنهم)، أو بعض صفات الصالحين من أمثال: سورتى «الأنبياء» و«المؤمنون».

عرض موجز لسورة يوسف عليه السلام

يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أن الحكمة من وراء إجمال قصة سيدنا يوسف عليه السلام فى سورة واحدة هى تشبيت خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم فى وقت من أوقات الشدائد التى لقيها من كفار ومشركى العرب، بعد وفاة كلّ من وعمه أبى طالب، وزوجته الوفية أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ وكانا ـ بعد الله تعالى ـ سندى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا أمام اضطهاد كفار قريش له خاصة، وللمسلمين (عامة) فى مكة المكرمة، وكان قد زاد الموقف حدة تخلى أهل الطائف عن مناصرته صلى الله عليه وسلم، وتآمر الكفار والمشركين فى مكة على قتله، أو سجنه، أو نفيه بعد بيعتى العقبة الأولى والثانية؛ وبعد سيادة الشعور العام بتعاظم خطر الإسلام والمسلمين، وتكوين قاعدة لهم بالمدينة المنورة. وكان

رسول الله ﷺ قد أمر بالاستعداد للهجرة، وعز عليه مفارقة مكة المكرمة ـ أشرف بقاع الأرض وأحبها إلى الله ورسوله ـ وما ساوره ﷺ فى ذلك الوقت العصيب من مشاعر الوحشة، والغربة، والانقطاع عن الكعبة المشرفة، وعن الأهل والأحباب، وكان أغلب أصحابه قد هاجروا بالفعل إلى المدينة المنورة.

وسط هذه الشدائد والابتلاءات والمحن أنزلت سورة يوسف على رسول الله ﷺ تروى قصة أخ له من أنبياء الله السابقين، وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على نبينا وعليهم جميعًا من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وقد عانى من الابتلاءات والمحن ما كان فى سرده شىء من التثبيت لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولصحابته الكرام ـ عليهم رضوان الله ـ، ولكل مسلم من بعدهم إلى يوم الدين.

فمنذ نعومة أظفاره مر نبى الله يوسف عليه السلام بقدر من الابتلاءات لا يقوى على حملها كثير من الناس، ابتداء بكيد إخوته له، وتآمرهم عليه، حتى تم إلقاؤهم به إلى غيابة الجب وهو طفل صغير، وما صاحبه فى هذا الوضع المخيف من رعب ووحشة وحزن، بعد الرعاية الفائقة التى كان قد تعود عليها فى ظل والديه، ثم محنة انتشاله من قاع البئر، وبيعه رقيقا، ينقله مالكوه من يد إلى يد، بغير إرادة منه، ولا مشورة معه، وهو النبى ابن النبى ابن النبى ابن النبى، ثم محنة افتتان زوجة العزيز به، وولهها وهيامها بحبه، ومحاولتها فتنته عن فطرته السوية التى فطره الله تعالى عليها، ومحنة ما جمعت له من نسوة تستعين بهن على فتنته، ومحنة السجن دون ذنب أو خطيئة، ثم الابتلاء بعد ذلك بالجاه والسلطان والسعة فى الرزق، والتمكين فى الأرض بالقيام على خزائن مصر، ثم الابتلاء بلقائه مع إخوته الذين سبق لهم أن ظلموه وجاروا عليه بالكيد له، وانتهاء بالابتلاء الكبير الذى تمثل فى تحقق رؤياه القديمة وسجود أبويه وإخوته له على العرش بعد أن جمع الله شملهم على أرض مصر الطيبة.

وقد صبر يوسف عليه السلام على جميع هذه الابتلاءات والمحن صبر المؤمن

بالله، الموقن بألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وتجلد تجلد الصابر المحتسب. طلبًا لمرضاة الله، وتسليمًا لقضائه، ورضا بقدره، وإيمانًا بأنه الخير كل الخير، رغم كل ما لا قى من شدائد ومحن، وهكذا يجب أن يكون كل مسلم.

ومما يثير الإعجاب حقا أن هذه الابتلاءات والشدائد والمحن التى مر بها سيدنا يوسف عليه السلام لم تعقه لحظة عن دعوته إلى الإسلام الخالص، القائم على توحيد الله، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، حتى فى أشد ساعات الابتلاء والامتحان صعوبة، ويذكر لنا القرآن الكريم رده على زميليه فى السجن حيث يقول:

﴿ يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

وبهذا الإيمان الراسخ بالله الواحد القهار خرج نبى الله يوسف عليه السلام من كل هذه الابتلاءات والمحن والشدائد وهو أصلب عودًا، وأقوى على مجابهة الحياة، وأكثر إخلاصًا وتجردًا لعبادة الله وحده، وحبًا له، وتفانيًا فى إرضائه، ولذلك كانت أكبر أمنياته فى لحظة الانتصار أن يتوفاه الله مسلما، وفى ذلك يقول لنا القرآن الكريم فى ختام قصة يوسف عليه السلام:

﴿ فَلَمّا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقالَ يا أَبَتِ هٰذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ فاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

وهكذا كان فى قصة نبى الله يوسف عليه السلام أجمل مواساة لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم فى الابتلاءات والمحن والشدائد التى مر بها قبل الهجرة، وأعظم تطمين له بحتمية الانتصار على أعداء الله وأعدائه، وأجمل بشرى بقرب التمكين له فى الأرض كما سبق وأن مكن الله ـ تعالى ـ لنبيه يوسف عليه السلام بعد ما مر به من الابتلاءات. ومثل هذه البشريات لا تدركها إلا القلوب العامرة بالإيمان

بالله، والمطمئنة بمعيته ـ سبحانه وتعالى ـ والمسلمة بقدر الله وقضائه، والموقنة بأن فيه الخير كل الخير حتى لو بدالنا بمقاييسنا البشرية المحدودة أنه ليس فى صالحنا، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٦ـ٥٧].

وفى الآية الأخيرة إشارة واضحة إلى ضآلة شأن الدنيا إذا قورنت بالآخرة، وتأكيد على أن كل محنة وابتلاء وشدة يمر بها المؤمن فى هذه الحياة الدنيا هى من أجل تزكية نفسه، وتطهير بدنه، وتكفير سيئاته، ورفع درجاته، وزيادة أجره ولذلك فإن سورة يوسف التى بدأت برؤياه وانتهت بتحقيق تلك الرؤيا ختمت بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٨ـ١١١].

الحروف المقطعة فى مطلع سورة يوسف

جاءت قصة نبى الله يوسف عليه السلام فى ثمان وتسعين آية، وختمت بخطاب إلى رسول الله ﷺ فى عشر آيات، وقدم لها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بثلاث من الآيات كانت أولاها: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١].

والحروف المقطعة الثلاثة (الر) تكررت خمس مرات فى مطلع خمس من سور القرآن الكريم، وجاءت مرة سادسة مع إضافة الحرف م (المر). وهذه الحروف

الهجائية المقطعة التى جاءت بأربع عشرة صيغة، فى مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم فى أحد الآراء، أو سبع وعشرين سورة فى رأى آخر، تعتبر من أسرار هذا الكتاب العزيز التى فوض كثير من المفسرين العلم فيها إلى الله ـ تعالى ـ وحاول بعضهم إيجاد تفسير لها، فمنهم من رأى أنها رموز إلى كلمات أو معان، أو أعداد معينة، ومنهم من رأى أنها أسماء للسور، أو أنها قصدت لإظهار التحدى بالقرآن الكريم، وللدلالة على إعجازه، أو قصد منها تنبيه السامع، أو جعلها فواتح للكلام، ومنهم من يرى أن هناك روابط معنوية بين الحروف المقطعة وسورها، أو روابط رياضية بين تلك الحروف المقطعة وعدد مرات ورودها فى السورة، بمعنى وجود قانون رياضى يربط توزيع الحروف فى سور هذا الكتاب العزيز الذى نزل منجما آية آية، أو بضع آيات بضع آيات، وفى حالة قصار السور وفى بعض الحالات النادرة جاءت السورة كاملة. ومن المفسرين من يرى أن الله ـ تعالى ـ أراد بتلك الحروف المقطعة شهادة على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لنطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمى ـ والأمى ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، لأن النطق بأسماء الحروف لا يعرف إلا بالتعلم والمران، ومن العلماء من يرى الجمع بين هذه الرؤى كلها، مع إمكانية إضافة غيرها إليها.

والحروف المقطعة الثلاثة (الر) التى استهلت بها سورة يوسف عليه السلام كأنها تخاطب العرب ـ وهم فى قمة الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ـ فتقول لهم إن كلامكم يتركب من تلك الحروف الهجائية وأمثالها، وكذلك القرآن الكريم كله، وقد تحداكم ربكم أن تأتوا بقرآن مثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله ففشلتم وعجزتم عن ذلك مما يجعل هذا الكتاب المبين حجة عليكم أجمعين، ولذلك جاءت الآية الثانية من سورة يوسف بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وَوُجِّه الخطاب فى الآية الثالثة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وذلك لأن قصة نبى الله يوسف عليه السلام كانت بالنسبة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من أنباء الغيب كما أشار الله تعالى إلى ذلك فى عشر آيات من هذه السورة المباركة، فلم يكن رسولنا الخاتم ﷺ يعلم شيئًا عنها قبل أن يتنزل عليه الوحى بها، ولم تكن الغالبية الساحقة من أهل الأرض تذكر شيئا عنها باستثناء قلة نادرة من أحبار اليهود الذين كانوا مبعثرين فى جيوب قليلة من الجزيرة العربية، وكان أغلبهم من البدو قليلى العلم، ومن الأميين الذين لا يقرأون. والمقارنة بين قصة سيدنا يوسف عليه السلام كما جاءت فى القرآن الكريم، وكما جاءت فى العهد القديم توضح الفارق الشاسع بين كلام الله وكلام البشر، والتشابه فى القصة الكريمة مرده إلى وحدة المصدر السماوى، والاختلاف فى الأسلوب والمحتوى والتفاصيل مرده إلى قدر هائل من التحريف الذى تعرضت له رسالة سيدنا موسى - على نبينا وعليه من الله السلام -.

من القضايا المعنوية فى سورة يوسف

تضمنت سورة يوسف العديد من القضايا العقدية والروحية والمعنوية التى نستخلص منها ما يلى:

(١) إن القرآن الكريم هو كلام الله - سبحانه وتعالى - الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، بلسان عربى مبين كى يفهمه العرب ويطبقوه أمرا واقعا فى حياتهم، ويبلغوا به غيرهم من الأمم أصحاب اللغات الأخرى؛ لأنه أنزل للناس كافة، ولأنه الكتاب المبيِّن عن الدين الحق، الواضح الدلالة لكل من استرشد بهديه الربانى الخالص، فى الوقت الذى تعرضت كل صور الوحى السابقة على نزوله للضياع التام، وما بقى منها من ذكريات نقلت شفاها لعدد من القرون، ثم دونت بلغات غير لغة الوحى، وتعرضت خلال ذلك - ولا تزال تتعرض - للتحريف بعد التحريف، وللتبديل والتغيير مما أخرجها عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها.

(٢) إن قصة نبى الله يوسف عليه السلام لم تكن معروفة لرسول الله ﷺ قبل الوحى بها إليه، ولم يكن أحد من العرب يعرف شيئا عنها ـ فضلا عن تفاصيلها ـ سوى آحاد من أهل الكتاب الذين وجدوها بصورة محرفة فى كتبهم، وشتان بين روايتها فى القرآن الكريم وسردها عندهم، والفارق واضح وضوح الشمس بين كلام الله وصياغة البشر، وعلى ذلك فإن قصة سيدنا يوسف فى القرآن الكريم هى من الشهادات الناطقة بنبوة النبى الخاتم، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحى، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض؛ وإن كان المستشرقون وأعداء الإسلام من كل لون وصوب قد استغلوا التشابه بين القصص القرآنى والقصص عند أهل الكتاب للادعاء الباطل بأن الرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ قد اقتبسه من كتبهم، بدلا من التسليم بوحدة المصدر وهو الله الخالق سبحانه وتعالى، مع الفارق الواضح بين كلام الله وتحريف البشر، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام كما جاءت فى كل من سفر التكوين والقرآن الكريم؛ وهنا تتضح الحكمة الربانية من جعل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة، كما ثبت ذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى سورة العنكبوت مخاطبا هذا الرسول الخاتم ﷺ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

(٣) إن رؤى الأنبياء حق، وأن الله ـ تعالى ـ يُعلِّم من يشاء من عباده الصالحين تأويل الرؤى.

(٤) إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يترصد بوسوسته جميع بنى آدم حتى أبناء الأنبياء والمرسلين كما حدث مع إخوة يوسف عليه السلام.

(٥) إن المساواة بين الأبناء ضرورة فطرية، ولازمة تربوية لأن المبالغة فى حب الوالدين أو أحدهما لأحد الأبناء يدفع الآخرين من الأبناء إلى كراهيته والكيد له كما حدث من إخوة يوسف.

(٦) أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يمكن لمن يشاء من عباده فى الأرض، وهو

سبحانه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، والإيمان بهذه الحقيقة يجعل الإنسان راضيًا بقضاء الله وقدره، ومُثَبَّتًا فى حالات النوازل والمحن والابتلاءات، وممنوعا من ظلم الآخرين؛ لأنه لايفلح الظالمون.

(٧) إن جميع أنبياء الله قد آمنوا بالله الواحد القهار، ودعوا أممهم إلى التوحيد الخالص لله الخالق ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ، وإلى تنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل وصف لايليق بجلاله؛ وذلك لأن الله تعالى قد أمر بألا يعبد سواه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، على الرغم من تسليمهم بأنه سبحانه وتعالى هو فاطر السماوات والأرض، وخالق كل شىء، وذلك من دس الشياطين ووسوساتها إليهم، ولذلك يوجه الحق ـ تبارك وتعالى ـ الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله بقوله عز من قائل:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

(٨) إن الإسلام القائم على التوحيد الخالص لله، وإسلام الوجه طواعية واختيارًا له ـ سبحانه ـ، والخضوع لأوامره خضوعًا كاملاً، واجتناب نواهيه اجتنابًا تامًا، واتباع هديه اتباعًا دقيقًا وذلك بعبادته تعالى بما أمر وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وإقامة عدل الله فيها، هذا الإسلام هو الدين القيم، الذى لا يرتضى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده دينا سواه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

(٩) إن النفس الإنسانية أمارة بالسوء إلا من رحم ربى وهو الغفور الرحيم، وعلى كل عاقل ألا يتبع نفسه هواها وأن يعلم أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

(١٠) إن العلم قيمة عليا فى الإسلام، وعلى العلماء ألا يغتروا بعلمهم لأن الله تعالى قد جعل فوق كل ذى علم عليم، وأنه تعالى لطيف لما يشاء، وأنه هو العليم الحكيم.

(١١) إن الساعة لا تأتى إلا بغتة، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

الإشارات الكونية فى سورة يوسف عليه السلام

جاء فى سورة نبى الله «يوسف» عليه السلام عدد غير قليل من الإشارات الكونية التى نوجز منها ما يلى:

(١) دون أدنى قدر من التكلف ـ لأن القرآن الكريم لا يحتاج ذلك ـ أقول إنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون عدد إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر، ويكون عدد الكواكب فى مجموعتنا الشمسية بنفس العدد، وأن يرى يوسف فى رؤياه أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، وتتحقق هذه الرؤيا بسجود إخوته وأبويه له يوم جمعهم الله ـ تعالى ـ جميعًا على أرض مصر، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

(٢) الإشارة إلى واقعة تاريخية وقعت بمصر من قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم بأكثر من اثنى عشر قرنًا مؤداها مرور سبع سنوات من الخصب العام، تلتها سبع سنوات عجاف من القحط والجفاف والجدب، تلاها عام زالت فيه تلك الشدة ونزل الغيث وعم الرخاء، وقد أثبتت الدراسات الأثرية صدق ذلك.

(٣) التوصية الإلهية التى ألهمها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لعبده يوسف عليه السلام بترك القمح المخزون من أعوام الرخاء لأعوام الشدة فى سنابله، وقد أثبتت التجارب أن خزن المحاصيل الزراعية ذات السنابل هى الطريقة المثلى فى حفظها لمدد طويلة دون فساد أو تسوس أو نقص فى محتواها الغذائى.

(٤) وصف عينى سيدنا يعقوب عليه السلام بأنهما ابيضتا من الحزن وهو ما يعرف اليوم باسم الماء الأبيض وهو عبارة عن عتامة تحدث لعدسة العين تمنع دخول الضوء جزئيا أو كليا إليها حسب درجة العتامة، وقد تحدث بسبب الحزن الشديد المصاحب بالبكاء؛ أو لكبر السن وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

(٥) الإشارة إلى أن عرق الإنسان به من المركبات الكيميائية ما يُمكِّن من شفاء عتامة عدسة العين (الماء الأبيض)،وهو ما توصل إليه الأستاذ الدكتور عبد الباسط سيد محمد الأستاذ بالمركز القومى للبحوث بالدقى ـ القاهرة، بعد أن قام بنقع عدد من العدسات المعتمة (التى تم استخراجها من عيون عدد من المرضى بعمليات جراحية) فى عرق الإنسان فوجد أنها تحدث حالة من الشفافية التدريجية لتلك العدسات،ووجد أن العامل المؤثر فى ذلك هو أحد المركبات الكيميائية لعرق الإنسان،واسمه العلمى (الجواندين)،وأمكن تحضير هذا المركب مختبريًا،وإنتاج قطرة للعيون منه حصل بها على براءة اختراع أوروبية وأخرى أمريكية فى العامين (١٩٩١ م و ١٩٩٣ م)على التوالى،وقد استوحى هذا العالم المصرى فكرة تلك القطرة من قول ربنا ــ تبارك وتعالى ــ على لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام ما نصه:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣].

(٦) الإشارة إلى أن بالسماوات والأرض من الآيات الحسية ما يشهد لله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وإحكام الخلق، وقد أثبتت الدراسات العلمية ذلك، وإن كان أغلب الناس ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]

وكل واحدة من هذه الإشارات الكونية تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الثالثة المتعلقة بخزن المحاصيل ذات السنابل فى سنابلها، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله تعالى على لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام:

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧].

* ذكر الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «قال ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أى يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾: أى مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا به فى السبع الشداد (وهن السبع السنين التى تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان؛ لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب، وهن السنبلات اليابسات) وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أى يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون، على عادتهم من زيت وعنب ونحوه».

ومن قبل ذكر الإمام الطبرى ـ رحمه الله ـ كما ذكر بقية المفسرين كلامًا مشابهًا مع تفاوت بسيط فى شرح دلالة بعض كلمات الآية الكريمة، ولذلك أرى الاكتفاء هنا بكلام الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ورحم جميع المفسرين الذين خدموا القرآن الكريم برحمته الواسعة ـ اللهم آمين.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

يعتبر القمح أهم أغذية الإنسان، وقد عرف فى المشرق العربى قبل بدء التاريخ، ثم انتشر إلى أواسط آسيا، ومن بعد ذلك إلى بقية أجزاء العالم، وكان قدماء المصريين من أوائل الشعوب التى زرعت القمح، وإن كان تاريخ زراعته يرجع إلى العصر الحجرى إن لم يكن قبل ذلك.

والقمح يتبع «العائلة النجيلية ـ **Family Gramineae**» نسبة إلى نبات النجيل، وتضم هذه العائلة بالإضافة إلى القمح عددا من المحاصيل الأخرى مثل الشعير، الذرة، الشوفان الراى أو الجاردار (**Rye**)، «السُّرخوم ـ **Sorghum**»، والأرز، كما تشمل نباتات اقتصادية أخرى مثل قصب السكر، والغاب والنجيل؛ وغير ذلك من حشائش المراعى، والأعشاب الطبية.

وتشمل عائلة النجيليات حوالى ٤٥٠ جنسا، وسبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التى تنتشر على سطح الأرض لتغطى مساحات هائلة تفوق المساحات التى تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتمثل العائلة النجيلية بأعشاب حولية أو معمرة، وإن كان بعضها يمثل بنباتات خشبية قد يصل طول الواحدة منها إلى أكثر من ثلاثين مترا كما هو الحال فى نباتات الخيزران الهندى. وأزهار النجيليات عادة ما تكون بسيطة التركيب صغيرة الحجم، خضراء ويتم تلقيحها بواسطة الرياح.

والقمح هو أهم أجناس العائلة النجيلية على الإطلاق، ويعرف منه فى مصر ثلاثة أنواع رئيسية ـ على الأقل ـ تعرف بالأسماء التالية:

(١) القمح شديد الاحتمال (الدكر) (***Triticum durum***) أو (***Emmer***) وهذا النوع من القمح يزرع فى جنوب صعيد مصر، وفى واحات الصحراء الغربية، وفى شبه جزيرة سيناء.

(٢) القمح البلدى (الهرمى) (***Triticum pyramidale***) ويزرع فى شمال صعيد مصر وفى الفيوم.

(٣) القمح الهندى (***Triticum Vulgare***) ويزرع فى الوجه البحرى.

وتتميز نباتات العائلة النجيلية بالجذور الليفية التى يحمل الكثير منها ريزومات عقدية ويتكاثر أغلبها بالأشطاء، وهى براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق كما هو الحال فى نبات القمح، الذى تتكون جذوره من مجموع أساسى خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضى يخرج من البراعم الجانبية، وكذلك الساق يتميز إلى ساق أساسى ـ يمثل نمو السويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة ـ وسيقان عرضية على هيئة أفرع قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية، المزدوجة، النامية على قاعدة الساق الأساسية عند منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق سطح الأرض مباشرة، وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من الأفرع أو السيقان المحيطة بالساق الرئيسى تعرف باسم الأشطاء ـ مفردها شطء ـ ويتراوح عددها فى المتوسط بين العشرين والثلاثين، وقد يصل إلى الخمسين، وعلى ذلك فإن نبتة القمح الواحدة توجد فى حزمة مركبة من الأشطاء

النامية حول الساق الأساسى وكلها متصلة ببعضها البعض فى مجموعة من الجذور الليفية مما يوضح خروجها من أصل واحد، أى من بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، فالحبة النابتة تخرج منها البادرة، والبادرة تعطى الأشطاء فى منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق التربة مباشرة، ولا تلبث تلك أن تنمو حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبا وتعطى سنابل مثلها، بحيث يكون لكل شطء سنبلة خاصة به، وبذلك تنبت الحبة الواحدة نباتات تحمل عدة سنابل.

وأوراق شجيرة القمح متبادلة على ساقها، وكل واحدة منها تحمل زوجًا من الأذينات عند قاعدة النصل، وللساق غمد يحيط به. ونورة نبات القمح تتكون من حشد من الأزهار التى تتجمع على جزء من الساق، وبذلك تتركب النورة من جزء من الساق يسمى محور النورة، وعدد من الأزهار التى تخرج من آباط أوراق صغيرة تسمى القنابات أو العصيفات أو العصافات ـ مفردها عصيفة ـ، وفى بعض الأحيان تظهر الأزهار دون قنابات.

ونورة نبات القمح نورة مركبة يستطيل فيها المحور وتترتب عليه الأزهار الجالسة التى بعد إخصابها تعطى الثمرة وهى بذور القمح، وعند تمام الإخصاب تتحول نورة القمح إلى سنبلة خضراء ثم بعد تماء نضجها تتحول إلى سنبلة صفراء ذهبية.

وسنبلة القمح سنبلة مركبة، يحمل فيها المحور سنابل أصغر تعرف باسم السنيبلات، وهى جانبية الترتيب فى تبادل على صفين متقابلين، وينتهى المحور عادة بسنبلة طرفية. وتحمل السنبلة فى المتوسط (١٥ ـ ٢٠) سنيبلة، ويتفاوت عدد الأزهار فى السنيبلة الواحدة بين (٢ ، ٩) ويكون فى السنيبلة الواحدة حبتان إلى ثلاث حبات من القمح. ولبعض سلالات القمح شوكة طرفية دقيقة جدا تعرف باسم (السفا أو الحسكة).

ونبات الشعير يشبه نبات القمح فى شكله وفى العديد من صفاته، والشعير من أقدم محاصيل الحبوب التى عرفها الإنسان وقام على زراعتها، وكان يعتبر المصدر الرئيسى لدقيق الخبز حتى حل القمح محله فى ذلك. ولكل من حبتى القمح والشعير غلاف رقيق ولكنه صلب، يلتصق بالحبة بشدة بالغة، ويعتبر حماية لها من

الرطوبة، والتغيرات المناخية، ومن مختلف أنواع الكائنات الحية الضارة، والملوثات الكيميائية، ويعرف باسم «الغلاف المحيط» **(Pericarp)**، وهو ينفصل عن حبة القمح ـ البرة ـ على هيئة النخالة عند الطحن، وتؤلف النخالة حوالى ٨,٥٪ من وزن حبة القمح وهى ثمرة جافة، صغيرة، التحم جدارها بغلاف البذرة التحامًا كاملاً.

وجنين بذرة القمح صغير جدا ويتكون من مركبات كيميائية ذات قيمة غذائية عالية من مثل البروتينات والفيتامينات والدهون، ويشكل ذلك حوالى ٢٪ ـ ٢,٥٪ من وزن حبة القمح، وعادة ما تستبعد الدهون من الدقيق عند طحنه لأنها تتحلل وتفسد مع التخزين لمدد طويلة، ويحاط الجنين بمخزون غذائى على هيئة طبقة بروتينية غنية بمادة «الجلوتين» **(Gluten)** وبمركبات الفوسفور والنشا، وجزيئات الجلوتين خيطية الشكل ومتشابكة مع بعضها البعض، ومن فوائدها أنها تجعل العجين لينًا سهل التشكيل، وقابلاً للتخمر بإضافة الخميرة إليه، ويمثل المخزون الغذائى فى حبة القمح حوالى ٨٧٪ إلى ٨٨٪ من كتلتها.

وحبة القمح تغلفها قنابة تسمى «العصافة» **(Glume)** هى التى تكون قشر الحنطة. والحبوب فى كل من السنيبلات والسنابل محاطة بأغلفة واقية وأشواك وشعيرات تحميها من الفطريات والبكتيريا والجراثيم، والحشرات، والرطوبة، ومن تقلبات الطقس وتيارات الهواء الجوى المباشر المحمل بالملوثات. وهذه الأغلفة بالرغم من صلابتها، وشدة إحكامها فإنها تسمح بقدر من التهوية غير المباشرة والمستمرة للجنين الكامن فى داخل البذرة ـ وهو فى حالة من الركود الحيوى والكمون والسكون ـ، وتحول فى نفس الوقت دون ارتفاع نسبة الرطوبة فيه وذلك للحيلولة دون إنبات الجنين فى أوقات التخزين. كذلك فإن البذرة الجافة وأغلفتها تحتوى على آثار طفيفة من مركبات كيميائية خاصة حافظة للبذرة، ومثبطة لعملية إنباتها تحت الظروف الجافة، وحاوية على مركبات أخرى مضادة لكل من البكتيريا، والفطريات والجراثيم المحتمل وصولها إلى الحبوب أثناء تخزينها.

انطلاقًا من ذلك كله جاءت الآية الكريمة التى نحن بصددها إلهاما من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه يوسف عليه السلام لكى ينصح بخزن المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير، والأرز، والشوفان فى سنابلها،وقد أثبتت التجربة أنه أفضل نظام

لحفظ تلك المحاصيل طالت مدد ذلك الحفظ أم قصرت، وقد طبقها يوسف عليه السلام لمدة وصلت إلى خمس عشرة سنة دون أن تفسد، وبقيت طوال هذه المدة محافظة على قيمتها الغذائية كاملة، وعلى حيويتها،وقدرتها على الإنبات والنمو والإثمار.

ولقد قام الأخ الدكتور عبد المجيد بلعابد ـ من جامعة وجدة بالمغرب العربى ـ بتجربة عملية للتأكد من ذلك فترك بذور القمح فى سنابلها لمدة عامين تحت ظروف عادية لم تراع فيها أية شروط من شروط تخزين الحبوب، وجرد بعض البذور من سنابلها وتركها أيضا تحت نفس الظروف ولنفس المدة الزمنية، فلاحظ أن الحبوب فى السنابل لم يطرأ عليها أى تغيير، لا فى محتواها من المواد الغذائية ولا فى قدرتها على الإنبات سوى فقدها لجزء من محتواها المائى مما جعلها أكثر جفافا، وأعلى فى قيمتها الغذائية وأصلح للحفظ وللإنبات لأن وجود الماء يسهل من تعفن القمح، خاصة وأن نسبة الماء فى بذوره تصل إلى ٢٠,٣٪. فى نفس الوقت لاحظ الباحث أن حبوب القمح التى جردت من سنابلها فقدت ٢٠٪ من محتواها من المواد البروتينية بعد سنة من خزنها، وفقدت ٣٢٪ من هذا المحتوى بعد سنتين، وكذلك فقدت نسبة كبيرة من قدرتها على الإنبات والنمو والإثمار. وبذلك ثبت بالتجربة أن أفضل طريقة لتخزين المحاصيل النباتية التى تنتج فى سنابل كالقمح والشعير والأرز هو حفظها فى سنابلها التى خلقها الله ـ تعالى ـ فيها.

وهذا من الوحى الذى أوحاه الله ـ تعالى ـ إلى نبيه يوسف عليه السلام، وذكره مع قصته كاملة فى القرآن الكريم مما يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الخالق العليم الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ ويشهد لكل من يوسف بن يعقوب عليهما السلام وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالنبوة وبالرسالة؛ وذلك لأن المصريين القدماء ما كانوا يعرفون طريقة لحفظ الغلال وخزنها إلا معزولة عن سنابلها، والأمر الإلهى بحفظها فى سنابلها لم يدرك إلا بعد مشورة هذا النبى سليل بيت النبوة ـ على نبينا وعليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ ولا يزال القمح يخزن فى أيامنا هذه مفروطًا من سنابله مما يعرضه لفساد كبير عند خزنه على الرغم من الاحتياطات الكثيرة التى تتخذ فى صوامع ومخازن الغلال.

وإذا أضفنا إلى ذلك مقارنة قصة يوسف عليه السلام كما أنزلت فى القرآن الكريم على نبى أمى ﷺ، وسط أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، مع ما ورد عنها فى سفر التكوين، اتضحت لنا وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، وفضل الإسلام العظيم على الناس أجمعين، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب؛ لأن القصة فى سفر التكوين مع تشابهها مع ما جاء فى القرآن الكريم قد عابها كثير من التدخل البشرى، والتحريف لأنها ظلت تروى مشافهة لأكثر من ثمانية قرون، ودونت بعد ضياع مصادرها الأصلية بقرون متطاولة. وهنا يتضح فضل العهد الإلهى الذى قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية بحفظه للقرآن الكريم من لحظة نزوله وإلى قيام الساعة فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونسأل الله تعالى أن يخص خاتم الأنبياء والمرسلين وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن والاهم وسار على دربهم إلى يوم الدين بأفضل الصلاة وأزكى التسليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***